بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده و نستعينه و نستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا, من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمد عبده و رسوله ﷺ .

أما بعد : يقول فضيلة الشيخ عبد الرزاق البدر حفظه الله تعالى :

إن أحسن الخطب وأوفاها بياناً وأتمّاها نصحاً خطبُ نبينا الكريم ﷺ فقد جمع الله له في خطبه المنيفة جمال البيان وحسن الإفهام وقلة ألفاظ الكلام، بل ما سمع قط كلامُ أحد من البشر أعمَّ نفعاً، ولا أفصح معنى، ولا أصدق لفظاً، ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أوفى نصحاً من كلامه الشريف ﷺ ، وقد آتاه الله جوامع الكلم وخصه ببدائع الحكم، كما في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال :« بعثت بجوامع الكلم ».

قال الزهري ﷺ :« جوامع الكلم –فيما بلغنا– أن الله يجمع له الأمورَ الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك ».

ومن يتأمل خطبه صلوات الله وسلامه عليه يجدُ فيها الوفاء والنصح والبيان، وكان يخطب في كل وقت بما تقتضيه حاجةُ المخاطبين ومصلحتُهم، إلاّ أنها في الجملة كان مدارُها على حمد الله والثناء عليه بآلائه وأوصاف كماله ومحامده وتعليم قواعد الإسلام وذكرِ الجنة والنار والمعاد والأمر بتقوى الله وتبيين موارد غَضبه ومواقع رضاه ، والحج مناسبة كريمة وفرصة ثمينة للنصح والتوجيه والوعظ والتنبيه والتعليم والإرشاد، إذ القلوب فيه مقبلة والنفوس مطمئنة والرغبة في الخير شديدة، فحريٌّ بالدعاة إلى الله تعالى أن تتضافر جهودهم وتتوافر هممهم في هذا الموسم المبارك نصحاً وتعليماً وإرشاداً وتوجيهاً مقتفين آثار نبيهم الكريم مهتدين بهديه القويم، وأن يكون مرتكزُ كلامهم ما دعا إليه ومحورُ نصحهم وبيانهم ما أرشد إليه، إذ هو ﷺ أنصحُ الناس للناس، بل هو قدوة الناصحين وإمام المرشدين ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب:٢١].

١– من كتاب «خطب ومواعض من حجة الوداع ».

وقد كان لخطب النبي ﷺ في حجة الوداع على وجه الخصوص شأنٌ عظيم إذ هي وصية مودع والمودع يستقصي ما لا يستقصي غيرُهُ في القول والفعل، وقد عرّض في خطبته في حجة الوداع بذلك فقال: « فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا »، وطفق يودّع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع. ولهذا قال ابن عباس ﷺ في شأن هذه الخطبة: « فوالذي نفسي بيده إنها لوصيته ﷺ إلى أمته » رواه البخاري.

ويدل لأهمية هذه الخطبة وعظيم شأنها أمورٌ عديدة منها :

أولاً: أن النبي ﷺ ودع الناس على إثرها فهي وصية مودع كما سبق إيضاح ذلك.

ثانياً: أن النبي ﷺ استنصت الناس أي طلب منهم أن ينصتوا، ففي الصحيحين من حديث جرير بن عبد الله البجلي ﷺ أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع : « استنصت الناس ». مما يدل على أهمية الأمر، حيث إن الخطبة لما كانت مشتملة على صلاح الناس وسعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ناسب أن يأمرهم بالإنصات الذي يؤثر فيهم العلمَ والانتفاع ومن ثم العملَ والارتفاع. وقد نُقل عن سفيانَ الثوريِّ وغيرِه أنه قال: « أولُ العلم الاستماع ثم الانصات ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر ».

ثالثاً: أن النبي ﷺ كان في خطبته تلك يتطاول من أجل إسماع الناس. ففي المسند عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: « سمعت رسول الله ﷺ يخطب الناس في حجة الوداع وهو على الجدعاء واضع رجله في غَراز الرحل يتطاول يقول ألا تسمعون ».

رابعاً: أن الله ﷻ فتح أسماع الناس في ذلك اليوم فكانوا يسمعون كلامه ﷺ وهم في منازلهم. ففي سنن النسائي عن عبد الرحمن بن معاذ ﷺ قال: « خطبنا رسول الله ﷺ بمنى ففتح الله أسماعنا، حتى إنْ كنّا لنسمعُ ما يقول ونحن في منازلنا ».

خامساً: أنه ﷺ اتخذ من يبلغ عنه، ففي سنن أبي داود عن رافع بن عمرو المزني قال : « رأيت رسول الله ﷺ يخطب الناس بمنى حين ارتفع الضحى على بغلة شهباء، وعليٌّ ﷺ يعبّر عنه، والناس بين قاعد وقائم ».

وقوله: « وعليٌّ ﷺ يعبر عنه » من التعبير، أي : يبلّغ حديثه مَنْ هو بعيدٌ من النبي ﷺ.

سادساً: قوله ﷺ في الخطبة: « ألا هل بلّغت ؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد » وتكراره لذلك.

سابعاً: أمرُهم بأن يبلغ الشاهدُ منهم الغائب، ففي حديث أبي بكرة ﷺ في الصحيحين قال ﷺ: « فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلَّغ أوعى من سامع ».

ثامناً: استعماله ﷺ في خطبته أسلوب الحض والتنبيه وشدِّ الانتباه « ألا هل بلغت »، « ألا ليبلغ الشاهد الغائب »، « ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »، وتَكرّر مثلُ هذا في مواضع من خطبته. وكذلك أساليبُ التوكيد كقوله : « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا »، وفي هذا ما فيه من الاهتمامِ وتقويةِ الكلام وتثبيتهِ في أذهان سامعيه.

تاسعاً: التأمل في مضامين هذه الخطبة العظيمة ودلالاتها المباركة حيث قرر فيها صلوات الله وسلامه عليه قواعد الملة الحنيفية، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية، وقرر فيها تحريم المحرمات التي اتفقت الملل على تحريمها إلى غير ذلك من المضامين العظيمة التي اشتملت عليها خطبته، مما سنقف على جملته من خلال هذه الرسالة بإذن الله ﷻ.

فكل ذلك يدل دلالة واضحة على أهمية شأن خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع وأهمية العناية بها، وأن الحاجة ماسة إلى معرفتها في حق كل مسلم صغير أو كبير ذكر أو أنثى. رزقنا الله البصيرة بسنته والاهتداء بهديه.

* * * * *

وصايا متنوعة

وثمت أمور عديدة تناولها النبي ﷺ بالبيان في خطبه ومواعظه في حجة الوداع تمس حاجة الناس إليها في صلاحهم مع ربهم وفي صلاحهم مع أنفسهم ومع مَن يعاشرون، يضيق المقام عن تفصيلها، لكن أشير إلى طائفة منها على سبيل الإجمال.

فمما بينه ﷺ في خطبه ومواعظه وتذكيره في حجته تأكيدُه على لزوم سنته واتباع هديه، وسلوك نهجه، والحذرِ من البدع والأهواء، ومن القول عليه بلا علم، أو تعمد الكذب عليه، ومفارقة هديه.

روى الإمام أحمد في مسنده عن عمرو بن مرة قال: سمعت مرة قال: حدثني رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ على ناقة حمراء مخضرمة فقال: « أتدرون أيُّ يوم يومكم هذا...» وذكر الحديث وفيه:« ألا وإني فرطُكم على الحوض أنظركم، وإني مكاثر بكم الأمم فلا تسودوا وجهي، ألا وقد رأيتموني وسمعتم مني، وستسألون عنّي، فمن كذب عليَّ فليتبوّأ مقعده من النار، ألا وإني مستنقِذٌ رجالاً أو ناساً ومستنقَذٌ مني آخرون، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ».

فهذا تحذير بالغ من البدع والأهواء والإحداث في الدين، وتحذير من الكذب عليه ﷺ والقول عليه بلا علم فإنه من كبائر الذنوب، وعظائم الآثام الموجبة لدخول النار.

ومما بينه ﷺ في حجة الوداع الحث على برِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والتحذير من الاعتداء على حقوق الآخرين، أو النيل من أعراضهم واغتيابهم.

روى الطبراني في المعجم الكبير عن أسامة بن شَريك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع وهو يقول: « أمّك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك » قال: فجاء قوم فقالوا : يا رسول الله قَتَلَنا بنو يربوع ؟ فقال: « لا تجني نفسٌ على أخرى » ثم سأله رجل نسي أن يرمي الجمار؟ قال: « ارم ولا حرج » ثم أتاه آخر فقال : يا رسول الله نسيت الطواف، فقال: « طف ولا حرج » ثم أتاه آخر حلق قبل أن يذبح ، قال : « اذبح ولا حرج » قال: فما سألوه يومئذ عن شيء إلاّ قال : « لا حرج ولا حرج » .

ثم قال : « أذهب الله ﷻ الحرج إلاّ رجل اقترض مسلماً فذلك الذي حرج وهلك » وقال: « ما أنزل الله ﷻ داءً إلاّ أنزل له دواءً إلاّ الهرم » (عجم الكبير (رقم:٤٨٤).

ومما بينه كذلك التحذير من الجناية على الآخرين وأن من يجني لا يرجع وبال جنايته من الإثم أو القصاص إلاّ إليه، وحذر من الشيطان وكيده وأنه لما رأى قوة التوحيد والإيمان يئس من وجود الشرك في المصلين، ولا يعني هذا اليأس انتفاء وجود الشرك، وأخبر أنه سيكون له أتباع يطيعونه فيما يدعوهم إليه، وحذر من الربا ومن الظلم.

روى ابن ماجه عن عمرو بن الأحوص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في حجة الوداع : « يا أيها الناس ألا أيُّ يوم أَحْرَمُ ؟ ثلاث مرات ، قالوا: يومَ الحج الأكبر، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا لا يجني جانٍ إلاّ على نفسه، ولا يجني والدٌ على ولده، ولا مولودٌ على والده، ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبداً، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم، فيرضى بها، ألا وكل دم من دماء الجاهلية موضوع، وأول ما أضع منها دمُ الحارث بن عبد المطلب، كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل، ألا وإنَّ كلَّ رباً من ربا الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم، لا تَظلمون ولا تُظلمون، ألا يا أمَّتاه، هل بلّغت؟ ثلاث مرات، قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد، ثلاث مرات ».

ومما بينه كذلك أنَّ الله قسم المواريث في كتابه وأعطى كلَّ إنسان نصيبه من الميراث، وأخبر أنَّ الولد للفراش أي لصاحب الفراش وأن العاهر له الحجر، وحذر من أن ينتسب الرجل إلى غير أبيه.

ففي المسند عن عمرو بن خارجة قال : خطبنا رسول الله ﷺ بمنى وهو على راحلته وهي تقصع بجرّتها ، ولُعابُها يسيل بين كتفيَّ ، فقال: « إنَّ الله قسم لكلِّ إنسان نصيبه من الميراث ، فلا تجوز لوارث وصيةٌ ، الولد للفراش، وللعاهر الحجر، ألا ومن ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه رغبةً عنهم فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ».

وبيّن أيضاً فيما بيّن قصر الدنيا وسرعة زوالها، وحذّر من الاغترار بها حيث قال للناس قبل غروب الشمس وهو واقف بعرفة: « أيها الناس إنه لم يبق من دنياكم فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه ». رواه أحمد.

وحثّ الناس على السكينة والرفق وعدم التدافع، فعند الانطلاق من عرفة قال: « يا أيها الناس عليكم بالسكينة والوقار » رواه النسائي.

ولما تزاحم الناس عند الجمرات قال ﷺ : « يا أيها الناس لا يقتل بعضكم بعضاً، وإذا رميتم فارموا بمثل حصى الخذف » رواه أحمد.

وحذر الأمة من فتنة الدجال وذكر صفته، ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر ﷺ قال : كنا نتحدث عن حجة الوداع ، والنبيُّ ﷺ بين أظهرنا ، ولا ندري ما حجةُ الوداع، حتى حمد الله رسولُ الله ﷺ وأثنى عليه ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره ، وقال : « ما بعث الله من نبي إلاّ أنذره أمته؛ أنذره نوح والنبيون من بعده، وإنه يخرج فيكم، فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم، إن ربكم ليس بأعور، إنه أعور عين اليمنى كأنَّ عينه عنبة طافية » الحديث[1].

إلى غير ذلك من الوصايا العظيمة، والعظات البالغة، والتوجيهات السديدة، نصحاً للأمة وبياناً للدين . فجزاه الله عن أمته خير الجزاء وأوفاه، وصلى الله عليه وملائكته والصالحون من عباده وسلم تسليماً كثيراً.

* * * * *

١ – ينظر «فتح الباري» لابن حجر (١٠٧/٨).

خطبة يوم عرفة

إن من خطب النبي ﷺ في الحج خطبتَه يوم عرفة، وذلك فيما رواه الصحابي الجليل جابر بن عبد الله ﷺ في حديثه الطَويل الذي وصف فيه حجة النبي ﷺ من خروجه من المدينة إلى أن رجع إليها، وهو حديث عظيم مشتمل على جملٍ من الفوائد، ونفائسَ من مهماتِ القواعد، وهو مخرج في صحيح الإمامِ مسلمٍ ﷺ.

قال جابر ﷺ في سياق هذا الحديث: حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فَرُحِلَتْ له، فأَتى بطنَ الوادي فخطب الناس وقال : « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهلية تحت قدميَّ موضوع، ودماءُ الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضعُ من دمائنا دمُ ابنِ ربيعةَ بنِ الحارثِ كان مُسْتَرْضعاً في بني سعدٍ فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول رباً أضعُ ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كلُّه، فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنَّ بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فُرُشَكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرِّح، ولهن عليكم رزقهُنَّ وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتابَ الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: « اللهم اشهد، اللهم اشهد » ثلاث مرات، ثم أَذّن، ثم أقام ، فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر».

وهي خطبة عظيمة تضمنت أصولاً عظيمةً، وقواعدَ جليلةً، وآداباً كريمة.

من كتاب / خطب ومواعظ من حجة الوداع
لفضيلة الشيخ عبد الرزاق البدر حفظه الله تعالى

تم بحمد الله

خطب ومواعظ من حجة الوداع

فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر